الأردن العسكري في فلسطين (١٩٤٨ ــ ١٩٤٩) مثلاً جاء هدماً لاحتمال قيام دولة عربية فيها، كما كان يريد الانكلو ــ أميركيون؛ وفي عام ١٩٥٤ وافق حكم الثورة المصري على مشروع اعادة توطين لاجئي غزة في سيناء الذي قضت عليه المقاومة الجماهيرية الفلسطينية والذي أريدت به خطوة تجريبية لحل ما كان يسمى عندئذ «بقضية اللاجئين» الفلسطينيين فقط. ولم يسمح ابداً أن تصبح الحدود المصرية الاسرائيلية معابر للمجموعات الفدائية الفلسطينية.. وهذا في الوقت نفسه الذي كانت مصر بشكل عام مؤسسة للحركة العروبية الحديثة، وفي طليعة الدفاع عن قضية فلسطين، والعدو الأعظم ثقلاً للتوسعية الاسرائيلية الخ.

قد يقال ان مصر ليست شيئاً فريداً في ذلك كله، وان سائر الدول العربية لا تختلف عنها من حيث الجوهر؛ فهذه في وقت وتلك في وقت آخر. غير أن المفارقة أشد بالنسبة لمصر، لا لحجمها السكاني والسياسي والفكري فحسب؛ بل وبالدقة، لأنها كثيراً ما تبوأت المركز الطليعي للحركة التحررية في العالم العربي كله وفي عهد قريب.

ومن الجائز أن يزداد الأمر حدة عند المقارنة مع حركة المقاومة الفلسطينية. فرغم أن فيها السمات المشتركة لحركات التحرر العربية الأخرى، إلا انها، دون شك، اشدها جذرية وحسماً في الفكرية والأساليب، وخاصة في السنوات الأخيرة. وهذا بصرف النظر عن الأسباب التي دفعتها في هذا الطريق. ولذلك أيضاً تبدو ازدواجية الخطوط المصرية ابرز فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، وبالذات في الفترة الماضية القريبة.

هذا كإطار عام. ولكن الرأي العام المصري اصبح مبتعداً عن خط الحركة التحررية العربية وشعاراتها بعد عام ١٩٧٣؛ ثم ازداد هذا الابتعاد ثباتاً وعمقاً بحيث اتخذ صورة صارخة كما قلنا بعد سنة ١٩٧٧. فالهزيمة التي جاءت بعد الانتصارات الأولى لحرب تشرين الأول (اكتوبر) باتت حجة على أن الحرب خاسرة لا محالة وان بذلت مصر مثل ذلك الجهد الاستثنائي الخارق الذي مكنها من دحر العدو في الهجمة الافتتاحية. وعلى كل، كانوا يتصورون أن كرة اخرى من المستحيلات تماماً «ما دام الاتحاد السوفياتي يبخل علينا بالسلاح، في حين أن أميركا فاتحة ترسانتها على مصراعيها أمام اسرائيل. فلنجرب المصالحة بالوساطة الأميركية، لعل فيها خيراً».

وكانوا يقولون: «ماذا كسبنا من تلك الحروب التي كلفتنا أرواحاً وأموالاً؟ اوضاعنا خربة، والذين استفادوا هم القطط السمان هنا وملوك الزيت هناك».

وفي أحوال كثيرة، كانوا يدفعون بالمناقشة إلى قضية فلسطين، على أن مصر حاربت من أجلها في حين أن الفلسطينيين انفسهم هم الذين باعوا أراضيهم لليهود وتركوا بلادهم وباتوا لا يعملون شيئاً، عائشين على نعيم الصدقات العربية والدولية ولا يريدون القناعة بالحلول الجزئية الممكنة بل يجعلوننا نحن نموت من أجل المستحيل.

كانوا وما يزالون مخطئين ومضللين (بالفتح) دون شك. ولكن، هل يفيد الحكم بالادانة في هذه الحالة؟ أم الفائدة أن نتفهم لِـمَ تجري هذه الأفكار، وما هي أرضيتها الموضوعية؟